أَطَاعُوكَ لِذٰلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُم أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذٰلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذٰلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ». أَخْرَجَاهُ[1].

ولَهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَومَ خَيْبَرَ: **«لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ** .....

تعالى، وأخلصوا له الدين، وعلى هٰذا لا تستحق أن تُسمى آلهة. فهم يعبدونها ويعترفون بأنَّهم لا يعبدونها إلا لأجل أن تقرِّبهم إلى الله فقط؛ فجعلوها وسيلة وذريعة، وبهٰذا التقدير لا يرد علينا إشكال في قول الرسل لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأنَّ هٰذه المعبودات لا تستحق أن تُعبد، بل الإلٰه المعبود حقًا هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

وفي قوله: «**لا إلٰه إلا الله**» نفي الألوهية لغير الله، وإثباتها لله، ولهٰذا جاءت بطريق الحصر.

* * *

قوله: «**لأعطينَّ**»: هٰذه جملة مُؤَكَّدة بثلاث مُؤَكِّدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطينَّ.

قوله: «**الراية**»: العَلَم، وسُمِّي راية؛ لأنَّه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٣٠).

غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا؛ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.

واللواء؛ قيل: إنه الراية، وقيل: ما لُوِي أعلاه، أو لوي كلّه؛ فيكون الفرق بينهما: أن الرَّاية مفلولة لا تُطوى، واللواء يُطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهٰذا يُسمى عَلَمًا.

قوله: «غدًا»: يُراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله. والأصل أنه يراد بالغد ما يلي يومك، ويُراد بالأمس الذي يليه يومك، وقد يُراد بالغد ما وراء ذٰلك، قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]؛ أي: يوم القيامة. وكذٰلك بالأمس قد يُراد به ما وراء ذٰلك؛ أي: ما وراء اليوم الذي يليه يومك.

قوله: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»: أثبت المحبة لله من الجانبين، أي أن الله تعالى يُحِبُّ ويُحَبُّ، وقد أنكر هٰذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهٰذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة، وهي من صفاته الفعلية، وكل شيء من صفات الله يكون له سبب؛ فهو من الصفات الفعلية، والمحبة لها سبب؛ فقد يبغض الله إنسانًا في وقت ويحبه في وقت لسبب من الأسباب.

قوله: «على يديه»: أي: يفتح الله خيبر على يديه، وفي ذٰلك بشارة بالنصر.

قوله: «يدوكون»: أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: «غدوا على رسول الله»: أي: ذهبوا إليه في الغَدْوة مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها لينال محبة الله ورسوله.

فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟**». فَقِيلَ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «**انْفُذْ عَلَى رِسلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم** .....

قوله: «**فقال: أين علي؟**»: القائل: الرسول ﷺ.

قوله: «**يشتكي عينيه**»: أي: يتألم منهما، ولٰكنه يشتكي إلى الله؛ لأنَّ عينيه مريضة.

وقوله: «**فأرسلوا إليه**»: بأمر الرسول ﷺ.

قوله: «**فأتي به**»: كأنه رضي الله عنه قد عَمَّم على عينيه؛ لأنَّ قوله: «**أتي به**»؛ أي: يقاد.

وقوله: «**كأن لم يكن به وجع**»: أي: ليس بهما أثر حمرة ولا غيرها.

قوله: «**فبرأ**»: هٰذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله ﷺ، وهٰذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ لتخصيص النبي ﷺ له ذٰلك من بين سائر الصحابة.

قوله: «**انفذ على رسلك**»: أي مهلك، مأخوذ من رِسْل الناقة؛ أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، والمعنى: امش هوينًا هوينًا؛ لأنَّ المقام خطير؛ لأنَّه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «**حتى تنزل بساحتهم**»: أي: ما يقرب منهم وما حولهم،

ثُمَّ ادْعُهُم إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ

والنبي ﷺ يقول: «**إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»(١). وهٰذا إذا كنَّا على الوصف الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما إذا كنا على وصف القومية، فإننا لو نزلنا فى أحضانهم؛ فمن الممكن أن يقوموا ونكون في الأسفل.

قوله: «**ثم ادعهم**»: أي: أهل خيبر، «**إلى الإسلام**»؛ أي: الاستسلام لله.

قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم**»: أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا. لٰكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

وهٰذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟ فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هٰذا؛ فإننا نقول: الأَوْلى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم تخبره. وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع؛ فقد يسلم، وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يُخبَرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ لئلا يرتدوا عن الإسلام بعد إخبارهم بما يجب عليهم، وحينئذ يجب قتلهم لأنهم مرتدون. ويحتمل أن يقال: تترك هٰذه المسألة للواقع وما تقتضيه المصلحة من تقديم هٰذا أو هٰذا.

قوله: «**لأن يهدي الله**»: اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح

(١) من حديث أنس، رواه: البخاري (كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، ١/ ١٣٩)، ومسلم (كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر، ٣/ ١٣٩).

حُمْرِ النَّعَم»(١). (يَدُوكُونَ)؛ أَيْ: يَخُوضُونَ.

● فيهِ مَسائِلُ:

الأولى: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلى اللَّهِ طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

الهمزة مصدرية، ويهدي مؤول بالمصدر مبتدأ، و «خير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قوله: «حمر النعم»: بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول.

وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنَّها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «لأن يهدي الله بك»، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهدي هو الله. والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟ نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأنَّ من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هٰذا الثواب بقرينة المقام؛ لأن عليًا موجه إلى قوم كفَّار يدعوهم إلى الإسلام، والله أعلم.

* * *

فيه مسائل:

● **الأولى: أنَّ الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ:**

---

(١) رواه: البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٣/ ١٣٤)، ومسلم (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي، ٤/ ١٨٧٢).

الثانية: التَّنْبِيهُ عَلَى الإِخْلاصِ؛ لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الحَقِّ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

الثالثة: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

الرابعة: مِنْ دَلاَئِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ كَوْنُهُ تَنْزِيهًا للَّهِ تَعَالَى عَنِ المَسَبَّةِ.

وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾. والأشمل من ذٰلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

● **الثانية: التنبيه على الإخلاص**: وتؤخذ من قوله: «**أدعو إلى الله**»، ولهٰذا قال: «لأنَّ كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق؛ فهو يدعو إلى نفسه»؛ فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلاّ أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقًا كان أم باطلاً.

● **الثالثة: أن البصيرة من الفرائض**: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض؛ لأنَّه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة؛ فيكون العلم بذٰلك فريضة.

● **الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة**: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

ومعنى عن المسبّة؛ أي: وعن مماثلة الخالق للمخلوق؛ إذ تمثيل الكامل بالناقص يجعله ناقصًا.

قال الشاعر:

ألـم تـر أن الـسـيـف يـنـقـص قـدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

الخامسة: أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنُهُ مَسَبَّةً للَّهِ.

السادسة: وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِبْعَادُ الْمُسْلِمِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ؛ لِئَلَّا يَصِيرَ مِنْهُم، وَلَوْ لَمْ يُشْرِك.

السابعة: كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

الثامنة: أَنَّهُ يَبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةِ.

التاسعة: أَنَّ مَعْنَى: «**أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ**»: مَعْنَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ.

● **الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبّة لله**: وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

● **السادسة: وهي من أهمها ـ: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك**: لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقل: «وما أنا مشرك»؛ لأنّه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا؛ فهو في ظاهره منهم، ولهٰذا لما قال الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]؛ توجّه الخطاب له ولهم.

● **السابعة: كون التوحيد أول واجب**: تؤخذ من قوله ﷺ: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إلٰه إلا الله**»: وفي رواية: «**أن يوحدوا الله**». وقال بعض العلماء: أول واجب النظر، لٰكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد؛ لأنَّ معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

● **الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء**: تؤخذ من قوله ﷺ: «**ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

● **التاسعة: أنَّ معنى أن يوحّدوا الله معنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله**:

العاشرة: أَنَّ الإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الكتابِ وَهُوَ لاَ يَعْرِفُها، أَوْيَعْرِفُها وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا.

الحادية عشرة: التَّنْبِيهُ عَلَى التَعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

الثانية عشرة: البَدَاءَةُ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ.

الثالثة عشرة: مَصْرِفُ الزَّكَاةِ.

الرابعة عشرة: كَشْفُ العَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنِ المُتَعَلِّمِ.

تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبَّر في رواية بقوله: «شهادة أن لا إلٰه إلا الله»، وفي رواية عبَّر بقوله: «أن يوحدوا الله».

● **العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها**: ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وتؤخذ من قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله**»؛ إذ لو كانوا يعرفون لا إلٰه إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

● **الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج**: تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: «**ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم...**» إلخ الحديث.

● **الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم**: تؤخذ من أمره ﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

● **الثالثة عشرة: مصرف الزكاة**: تؤخذ من قوله: «**فترد على فقرائهم**».

● **الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم**: المراد بالشبهة

الخامسة عشرة: النَّهْيُ عَن كَرَائِمِ الأَمْوَالِ.

السادسة عشرة: اتِّقَاءُ دَعْوَةِ المَظْلُومِ.

السابعة عشرة: الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لاَ تُحْجَبُ.

الثامنة عشرة: مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنَ المَشَقَّةِ وَالجُوعِ وَالوَبَاءِ.

هنا: شبهة العلم؛ أي: يكون عنده جهل. تؤخذ من قوله: «**إنَّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**».

فبيَّن أنَّ هٰذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأنَّ مصرفها الفقراء.

● **الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال**: تؤخذ من قوله: «**فإياك وكرائم أموالهم**»؛ إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

● **السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم**: تؤخذ من قوله: «**واتق دعوة المظلوم**».

● **السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحجب**: تؤخذ من قوله: «**فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»؛ فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا؛ لقوله: «**اتق دعوة المظلوم**»؛ فالنفس قد لا تتقي، لٰكن إذا قيل: ليس بينها وبين الله حجاب؛ خافت ونفرت من ذٰلك.

● **الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء**: والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر؛ إذ وقع فيها في عهد النبي ﷺ

التاسعة عشرة: قَوْلُهُ: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ**...» إلخ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

العشرون: تَفْلُهُ فِي عَيْنَيْهِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِهَا أَيضًا.

الحادية والعشرون: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثانية والعشرون: فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.

جوع عظيم، حتى إنهم أكلوا الحمير والثوم[1]، وأمَّا الوباء؛ فهو ما وقع في عهد علي رضي الله عنه، وأما المشقة؛ فظاهرة. ووجه كون ذٰلك من أدلة التوحيد: أنَّ الصبر والتحمل في مثل هٰذه الأمور يدل على إخلاص الإنسان في توحيده وأن قصده الله، ولذٰلك صبر على البلاء.

● **التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة**: لأنَّ هٰذا حصل؛ فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا**: لأنَّه بصق في عينيه؛ فبرأ كأن لم يكن به وجع.

● **الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه**: وهٰذا ظاهر؛ لأنَّه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم**

---

(١) أكل لحوم الحمر من حديث سلمة بن الأكوع، رواه: البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٣/ ١٣٥)، ومسلم (كتاب الجهاد، باب غزوة خيبر، ٣/ ١٤٢٧).
وأكل الثوم رواه: البخاري في (الكتاب والباب السابقين، ٣/ ١٣٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الثالثة والعشرون: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

الرابعة والعشرون: الأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى رِسْلِكَ».

الخامسة والعشرون: الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ قَبْلَ القِتَالِ.

السادسة والعشرون: أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذٰلِكَ وَقُوتِلُوا.

السابعة والعشرون: الدَّعْوَةُ بِالحِكْمَةِ؛ لِقَوْلِهِ: «**أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ**».

عن بشارة الفتح: لأنَّهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

● **الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى**: لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يُعطاها ولم يعطوها، وعلي بن أبي طالب مريض ولم يسع لها ومع ذٰلك أعطي الراية.

● **الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك»**: ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

● **الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال**: لقوله: «**انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام**».

● **السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذٰلك وقوتلوا.**

● **السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة**؛ لقوله: «**أخبرهم بما يجب عليهم**»: لأنَّ من الحكمة أن تتم الدعوة، وذٰلك بأن تأمره بالإسلام أولاً،

الثامنة والعشرون: المَعْرِفَةُ بِحَقِّ اللَّهِ فِي الإِسْلَامِ.

التاسعة والعشرون: ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

الثلاثون: الحَلِفُ عَلَى الفُتْيَا.

ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام؛ لأنَّه قد يطبِّق هٰذا الإسلام الذي أمرته به وقد لا يطبقه، بل لا بد من تعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر.

● **الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام**: تؤخذ من قوله: «**وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**».

● **التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد**: لقوله: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم**»؛ أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر.

● **الثلاثون: الحلف على الفتيا**: لقوله: «**فوالله لأن يهدي الله...**» **إلخ**؛ فأقسم النبي ﷺ وهو لم يُستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه.

ولٰكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلاّ لمصلحة وفائدة؛ لأنَّه قد يفهم السامع أنَّ المفتي لم يحلف إلا لشك عنده.

والإمام أحمد رحمه الله أحيانًا يقول في إجابته: إي والله، وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن:

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

.....

وفي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

فإذا كان في القَسَم مصلحة ابتداءً، أو جوابًا لسؤال؛ جاز وربما يكون مطلوبًا.

* * *

بَابٌ
تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللَّهُ

.....

التفسير معناه: الكَشْفُ والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَرَتْ الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فَسَرْتُ ثوبي؛ فاتضح ما وراءه، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد تقدم تعريفه[1]، والمراد به هنا اعتقاد أن الله واحد في ألوهيته.

وقوله: «وشهادة أن لا إله إلا الله»: معطوف على التوحيد؛ أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

والعطف هنا من باب عطف المترادِفَيْن؛ لأنَّ التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وهٰذا الباب مهم؛ لأنَّه لَمَّا سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشْرأَبَّت إلى بيان ما هو هٰذا التوحيد الذي بُوِّب له هٰذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه).

فيُجاب بهٰذا الباب، وهو تفسير التوحيد، وقد ذكر المؤلف خمس آيات:

(١) انظر: (ص١٠).

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1]. الآية.

● **الآية الأولى: قوله تعالى:** ﴿أُولَٰئِكَ﴾. أولاء: مبتدأ. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول بدل منه.

﴿يَدْعُونَ﴾: صلة الموصول. وجملة ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبر المبتدأ؛ أي: هٰؤلاء الذين يدعوهم هٰؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب؛ فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهٰذا سفه في الحقيقة، وهٰذا ينطبق على كل من دعي، وهو داع؛ كعيسى بن مريم، والملائكة، والأولياء، والصالحين. وأمّا الشجر والحجر؛ فلا يدخل في الآية.

فهٰؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان؛ لأنّهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب، وقد قال تعالى مبينًا حال هٰؤلاء المدعوين: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾؛ أي: دعاء مسألة؛ كمن يدعو عليًا عند وقوعهم في الشدائد، وكمن يدعو النبي ﷺ يقول:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

وقد يكون دعاء عبادة؛ كمن يتذلل لهم بالتقرُّب، والنذر، والركوع، والسجود.

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٧.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[1]. الآية.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾: يطلبون.

قوله: ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾؛ أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله؛ يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أيهم أقرب إلى الله، وكذلك أيضًا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

*** وجه مناسبة الآية للباب، باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.**

أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى؛ فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم؛ فكيف يغنون غيرهم؟!

● الآية الثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ...﴾ الآيتين.

قوله: ﴿بَرَآءٌ﴾: على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التَّخلي؛ أي: إنَّني متخلٍّ غاية التَّخلي عمَّا تعبدون إلاَّ الذي فطرني، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذٰلك معلنًا به لأبيه وقومه، وأبوه هو آزر[2].

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٦، ٢٧.

(٢) انظر: (ص٩٤).

.....

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾: العبادة هنا التذلُّل والخضوع؛ لأنَّ في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشَّمس والقمر والكواكب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: جمع بين النفي والإثبات؛ فالنَّفي: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، والإثبات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ فدل على أنَّ التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهٰؤلاء يعبدون الله ويعبدون غيره؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذٰلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية من يصلي ويزكِّي ويصوم ويحج، ومع ذٰلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها ويركعون؛ فهم كفَّار غير موحِّدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهٰذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأنَّ الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهٰذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم؛ لأنَّ العامي لا يأخذ إلا من عالمه، لٰكن بعض الناس ـ والعياذ بالله ـ عالم دولة لا عالم ملة.

وفي قول إبراهيم ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، ولم يقل إلاّ الله فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنَّه كما أنه منفرد بالخلق؛ فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنَّها لم تفطركم حتى تعبدوها؛ ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات، وهٰذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام.

وَقَوْلُهُ: ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]. الآية.

يستفاد من الآية أنَّ التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لا بد من إخلاصه لله، والناس في هٰذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله وغيره.

والأوّل فقط هو الموحّد.

* * *

● **الآية الرابعة: قوله تعالى:** ﴿اتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ. . .﴾ الآية.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: والمعطوف عليها المفعول الأول لـ«اتخذوا»، والثاني: «أربابًا»؛ أي: هؤلاء اليهود والنصارى جعلوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا.

والأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم، ويقال للعالم أيضًا بحر لكثرة علمه.

والحَبر؛ بفتح الحاء، وكسرها يقال: حَبر، وحِبر.

قوله تعالى: ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾؛ أي: عبادهم.

وقوله: ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع ربّ، أي يجعلونهم أربابًا من دون الله؛

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣١.

.....

فجعلوا الأحبار أربابًا لأنهم يأتمرون بأمرهم في مخالفة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله.

وجعلوا الرهبان أربابًا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من غير الله.

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: معطوف على أحبارهم؛ أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًّا حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾؛ أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.

قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود حق إلا هو.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيه لله عما يشركون. وجه كون هٰذه الآية تفسيرًا للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، وهٰذه الآية سيأتي فيها ترجمة كاملة في كلام المؤلف رحمه الله؛ فهٰؤلاء جعلوا الأحبار شركاءَ في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم لا. إذًا؛ فتفسير التوحيد أيضًا بلا إله إلا الله يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهٰذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر؛ قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»[1].

* * *

(١) من حديث علي، رواه: البخاري (كتاب المغازي، باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي، ٣/ ١٦٠)، ومسلم (كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/ ١٤٦٩).